

الباب الثاني

أصول الخطابة ومقوماتها

obeikandi.com

أصول الخطابة ومقوماتها

من التعريفات السابقة عن الخطابة علمنا أنها: فن من فنون الكلام يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معا.. فما المقصود بذلك؟!

(١) ما يدخل أثره عن طريق السمع :

(أ) الأسلوب (ب) الإلقاء (ج) الصوت

(٢) ما يدخل أثره عن طريق البصر :

(أ) الوقفة والهيئة (ب) الحركة والملامح.

وتلك هي مقومات هذا الفن.. ولنتكلم عن كل واحدة من هذه المقومات بإسهاب بعض الشيء.

أولاً: الأسلوب

يقولون إن من البيان لسحرا. والخطيب الحصيف يمكنه أن يسحر الأئدة بقوة فكرته، وحسن إلقاءه، وعذوبة كلامه، وسهولة عرضه، ووضوح فكرته.

والخطيب لا يصل إلى الأذهان إلا عن طريق الآذان. لذا فإن ذوق في الجمال لابد من مراعاته ومرضاته حتى يصل لقلوب مستمعيه.

فالخطيب الحاذق هو الذي يصوغ خطبته في أسلوب يتخير له الألفاظ المتسقة والجمال المتراسة وال فقرات المترابطة والأساليب السهلة.

وعليه بالافتتان في تنويع الأسلوب والقصد فيه.. ولذلك يحسن أن يكون الخطيب ملماً بثروة كبيرة من آداب اللغة ومروياتها وأساليبها وألفاظها.

وعلى الخطيب أن يتجنب التكرار إذ هو عيب مغل في الخطبة.

كيف تكون خطيباً

والكلام لا يقاس بطوله، بل بمقدار فائدته، ولقد كان رسول الله ﷺ أقل الناس كلاماً وكانت خطبته مختصرة موجزة. والمروى من خطبه صلوات الله وسلامه عليه قليل ومختصر ولكن فائدته عظيمة.

وعلى الخطيب أيضاً أن يكون ملماً بآداب اللغة وطرائف المرويات، ذواقة للشعر والنثر حتى يمكنه ذلك من التعبير عما في ضميره، ونقل ما في نفسه إلى نفوس الآخرين بعبارة رقيقة وأداء مستحب.

■ ونضع أمام الخطيب هذه الأمور لكي يراعيها في تخير الأسلوب:

- توخى الأساليب السهلة.
- تنوع الأسلوب.
- تخير الألفاظ .
- الاعتماد على العاطفة والشعور. بمعنى أن يكون الخطيب يقظ القلب جياش المشاعر صادق اللهجة.
- وأخيراً كلما كان الخطيب مخلصاً في قوله، معتقداً صدق كلامه، كلما اتخذ سبيله إلى القلوب. فإن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الأذان.

وقد قال النووي في هذا الصدد: "يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبينة من غير تمطيط ولا تقصير، ولا تكون ألفاظاً ملفقة، فإنها لاتقع في النفوس موقعاً كاملاً، ولا تكون وحشية نافرة فإنها لا تحصل المقصود منها بل يختار ألفاظاً سهلة جزلة مفعمة".

وقال ابن القيم: "وكذلك كانت خطبة الرسول ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته. وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وآلائه.

ثانياً: الإلقاء

لحسن الإلقاء أثر عظيم فى نجاح الخطبة، ولذلك ينبغى اهتمام الخطيب به. فقد تسمع خطبتين ذات موضوع واحد إلا أنك تتجذب لإحدهما وتثير انتباهك وإعجابك لحسن إلقاء الخطيب وجمال عرضه وقد تتصرف عن الثانية وتتشتت لإلقاء الخطيب السيئ وضعف عرضه للموضوع.

وقد يكون أسلوب الخطبة غير بليغ فيرفعه الخطيب القادر بفصاحة منطقه وعذوبة إلقائه، فيثير السامع ويلهيه بجمال إلقائه، عن ضعف إنشائه.

والإلقاء الحسن يتمثل فى: الوضوح والطلاقة وتمثيل المعانى والعواطف وذلك بتغيير اللهجة وبتنوع الصوت، فيهدأ الخطيب ويبطئ ويسرع ويغضب ويعجب. ويسأل ويجيب. وكل ذلك فى استقامة لغة وسلامة منطق وبعد عن اللكنة وما يتبعه من كثرة اللجلجة والتلعثم والالتجاء إلى جمل الإستعانة كتكرير أيها السادة مثلاً... وهكذا.

وهكذا لا يبلغ الخطيب غايته إلا إذا كان حسن الإلقاء، جميل الأداء، قوى الروح ليواجه السامعين بالحق الواضح والذكر المبين.

ثالثاً: الصوت

من الصفات الحسية اللازمة للخطيب الصوت، والعناية برفعه أو خفضه فى المواضع المختلفة من الأشياء المهمة، إذ هو طريق نقل الفكرة إلى الآذان، فلا بد أن يكون جيداً حلو النغمة، صافى الرنين، خالص النبرات.

ويجب على الخطيب أن يعنى به ويقف على قوة ارتفاعه ومدى اتساعه حتى لا يكلفه فوق طاقته فيضحل ويتهدج.

ويحسن مع ذلك أن يبدأ الخطيب به فى انخفاض وتأن ثم برفعه رويداً رويداً حتى يبلغ به أقصى قوته، ثم يردده بين الصعود

والهبوط مغيراً في ميزاته ونگماته ووقفاته تبعاً للمعنى الذى يؤديه محاذراً ألا يخرج به عن مستواه.

رابعاً: الوقفة والهيئة

والمقصود بالوقفة: أن يكون الخطيب ثابت الجنان، شجاع القلب لا يحمل شيئاً من الجبن والخور، ولا يهاب أحداً إلا الله. متمالك الأعصاب. هادئ الأنفاس مستقيم الصوت.

والمقصود بالهيئة: وضاعة الطلعة وحسن الهندام. وإن كانت هذه صفات كمالية قد يغنى عنها جمال الأسلوب وحسن الإلقاء، إلا أن هذه أمور تجب العناية بها.

ذلك أن الخطيب مطمح أنظار الناس ومحل تقديرهم، فإذا كان حسن المنظر، جميل الهندام، كان موضع تقدير ومحل احترام، وإن كان على العكس من ذلك فإنه قد يلقي إعراضاً ونفوراً.

وقد قيل إن معاوية لما رأى النخار مرتدياً عباءة رثة أنكر مكانه وهيئته حتى اضطر النخار إلى أن يقول: "إن العباءة لا تكلمك ولكن يكلمك من فيها"^(١).

فالواجب على الخطيب أن يكون وجيهاً كى يوقره الكبير ويهابه الصغير، ويأخذ كلامه الطريق إلى القلوب.

والمقصود بالوجاهة هنا: ليست مبالغة الخطيب في مظهره أو في سيرته، بل يتحفظ ويجعل هيئته مقبولة بين الناس.

قال رجل لعبد الله بن عمر: "ما ألبس"، قال: "ألبس ما لا يعيبك عليه العلماء ولا يزدريك فيه السفهاء". أى أن ملابس الخطيب يجب أن تكون بحيث لا يحتقره فيها الرعاع، ولا يظن غيرهم أنه يتكلف في تجمله وزينته.

(١) الخطابة في الإسلام... للدكتور جمعة الخولى والدكتور مصلح بيومى.

ومن كلام الإمام عبد الرحمن بن الجوزي: "على أهل العلم أن يظهروا مروءاتهم في ثيابهم إكراما للعلم وإجلالا له".

ويقول الإمام مالك: "التواضع في التقى والدين لا في اللباس".

خامسا: الحركة والملامح

يقصد بهما: الإشارات التي يمكن أن تشارك مع الكلمات والنبرات، كإشارات اليد التي تساعد على تثبيت الكلمات في النفس، لأن الكلام إذا كان طريقه الأذن، فالإشارة تشرك العين مع الأذن في الإحاطة بالمعنى وتصوره. ولذلك كانت الحركات عنصرا من عناصر العمل الروائي، وهي كذلك جزء من أجزاء الفن الخطابي لنفعها وإفادتها.

فاستعمال إشارة اليد تؤكد المعنى، وأسرار الوجه تكشف عن أسرار الضمير.

والخطيب يستطيع أن يعبر بلامح وجهه عن اللذة والألم والرضا والسخط والنفور والميل والسرور والحزن.

ويعبر بالعيون عن العواطف المختلفة فيرفعها إلى السماء في الألم الشديد والدعاء، ويخفضها إلى الأرض في التفكير والحيرة والخشوع والحياء، أو يفتحها عند الاندهاش والإعجاب، ويطبقها عند التواضع والمسكنة.. وهكذا نرى أن كليهما عامل مساعد للخطيب.. عند إيصاله الفكرة للمستمع.

ويروى التاريخ القديم عن مصعب بن الزبير أنه باستعمال الإشارة اليدوية أثناء إلقائه لبعض آيات القرآن الكريم رسم في نفوس السامعين كل الذكريات الدينية التي تشير إليها هذه الآيات، وكأنما يحمل هذه النفوس حملا بإشارته إلى المواطن التي تعنيها هذه الآيات، فيجد السامع نفسه في موكب من الذكريات التي تكاد الإشارة أن تجسدها له تجسيدا.

إن مصعب بن الزبير قدم العراق فقال: بسم الله الرحمن

الرحيم ﴿طَسَمَ * تَلَكَّ * اَيْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١) وأشار بيده نحو الشام إلى حيث نشأ
موسى -عليه السلام- وإلى حيث هاجر بقومه بعدما كان من أمر
فرعون، فكانه أشار إلى مسرح تلك الحوادث فارتسمت في أذهان
السامعين بعد أن مرت عليها مئات الأجيال.

ثم استطرد مصعب بن الزبير يقول: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ
اسْتَضَعُّوْا فِي الْأَرْضِ وَنَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ، وأشار
بيده نحو الحجاز، ثم قرأ ﴿وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجْنَ
وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ .

• شروط نجاح الإشارة:

الخطيب الموفق هو الذي يضع الإشارة والحركة في محلها
ومجالها، وهناك شروط لذلك حتى تحقق الغرض منها.. نذكر منها
ما يلي:

(١) أن يقتصد في استعمالها قدر الإمكان، فلا يبالغ ولا يتكلف
ولا يكذب.

(٢) أن تتفق مع المعنى فتهدأ وتسرع وتثور تبعاً له.

(٣) ألا تسبق الكلام وألا تأتى بعده.

(٤) أن يكون حكيماً في استعمالها حيث تتناسب ما ينطق به لى
تجىء الإشارة جزءاً متمماً للكلام موضحة له، وحتى يكون في
استعمالها دقيقاً وموفقاً.